البلوغ في الآيات القرآنية

علي غضنفري*

خلاصة البحث

هذا المقالة تبحث عن البلوغ الجنسي و ما فيها في القرآن الكريم و هي من اهم الضروريات العملية و الاعتقادية حيث ان التكليف دارت مدارها.

نبحث اولاً عن العناوين المستعملة في الآيات الشريفه و بعض الاحاديث المنقوله عن المعصومين(ع) والّذي يستفاد من اللغويين في هذا المجال.

ثم نبحث عن القرآن و خمس من الآيات الّتي وردت فيها هذه اللغات حتى نصل الى نتيجة و هي اولاً: هذه الكلمات تستعمل تقريباً في معنى واحد. ثانياً: لم يحدد القرآن مبدأً خاصا في البلوغ هذا مع ان كل التكاليف الالهية تدور حول عنوان البلوغ فلو كان هناك حدّاً معيناً له، لذكره القرآن الكريم.

فاذن نستنتج من ذلك كله ان عدم بيان حد فاصل في القرآن مع اهمية و اعتباره يدل على ان اللّه تعالى اعتبر في اثبات حكم التكليف الوصول الى حد البلوغ فحسب.

مفتاح الكلمات: القرآن، التفسير، البلوغ.

الحمدللّه رب العالمين والصّلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ابي‌القاسم محمّد و آله الطّيبين الطاهرين لا سيّما بقيةاللّه في الارضين و خاتم الوصيين الحجة بن الحسن روحي لتراب مقدمه الفداء واللعن على اعدائهم الى يوم الدّين.

و بعد

فانّ البلوغ هو عبارة عن انهاء فترة من عمر الانسان و العبور الى مرحلة جديدة، لها شئونها الخاصة بها. والانسان في تغيّره هذا، يشبه الشجرة الّتي غيّرها الشتاء و جعلها كالخشبة اليابسة

* دكترای علوم قرآنی، عضو هیئت علمی دانشکده علوم قرآنی تهران

لكنها عندما تشم نسيم الربيع عند ذلک تخرج اغصانها و تفتح اورادها و تخرج ازهارها، ثمّ تتحول هذه الى ثمرٍ مأكول ذى لذةٍ للآكلين.

و هذا التحول الّذى حصل لهذه الشجرة هو ما يصطلح عليه بمرحلة البلوغ.

كذلک الانسان عندما يبدء حياته لابد و ان يطوي بعض المراحل التي تطرأ على ذاته خلال هذه المدة و من هنا نشير الى هذه المراحل بشكل اجمالى.

١- اوّل مرحلة يبدأ بها الانسان حياته هي الطفولة و الصغر، و الحياة فيها خالية في كلّ الاحوال و فارغة عن كلّ المتاعب و ليس فيها الّا اللعب و هو كما عرفه صاحب الميزان عمل منظوم لغرض خيالى كلعب الاطفال.

٢- ثمّ تبدأ المرحلة الثانية لحياة الانسان الّتي يشغل نفسه ببعض الأُمور الجزئية و يجنب نفسه عن اللعب الخالى من النتيجة و فيها يذهب وراء بعض المطالب البسيطه و هي ما يعبر عنها بمرحلة اللهو.

٣- بعد ذلک تبدأ المرحلة الثالثة في حياته و المعبر عنها بفترة التزئين والتجمل حيث انّه يسلک سبيل الزينة والتجمل من حيث اللبس الفاخر والمركب البهى والمنازل العاليه و غيرها من الامور التي لها قيمة في المجتمع ولا يرى للفكر الطفولى اى اثر في حياته.

٤- و من هنا تبدأ المرحلة الرابعة الّتي ينظر فيها الانسان الى نفسه، بمنظار آخر حيث انّه فيها ينظر الى نفسه بالقياس الى الآخرين و يقيس حوائجه مع حوائج الغير و عند ما يرى انّ الآخرين اعلى منه يسعى لطلب ما يرفعه على اقرانه لكى يكون اعلى و ارفع منهم. و هذه المرحلة هي ما يعبر عنها بمرحلة التفاخر.

٥- ثمّ بعد انتهاء ذلک كله تبدأ المرحلة الاخيرة في حياته و هي المرحلة الّتي يطلب فيها الكبرياء والعلو، فيعتقد ان ذلک لايحصل الّا بكثرة الاموال والاولاد فيهب لتكثير الاولاد و لجمع المال لكى يحصل بنظره على تلک المنزلة الرفيعة في المجتمع و هذه المرحلة هي ما يعبر عنها بمرحلة التكاثر.

و الى كل ما ذكرنا اشار اليه سبحانه و تعالى في سورة الحديد آية ٢٠ حيث قال: «**وَاعْلَمُوا**

اَنَما الْحَيَاة الدّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَباتُهُ ثُمّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدّنْيا اِلّا مَتاعُ الْغُرُور».

و قد ذهب بعض المفسرين الى انّ هذه المراحل الخمسة مترتبة بحسب سنّى عمر الانسان الى الاربعين حيث تقدر كل مرحلة بثمان سنين من عمره و في سن الاربعين يطوى كل هذه المراحل الخمسة و تكمل شخصية.

و عمر الانسان الّذي يحتوى على هذه المراحل الخمس، يشبه الزرع حيث انّه يتحرك الى غاية ما يمكنه من النّمو والازدهار، ثمّ بعد ذلک يصفر لونه و ينكمش ثم يكون هشيماً متلاشياً تذروه الرياح. و هنا تُطوى مرحلة من مراحل الحياة للزرع و تستعد الارض لمرحلة جديدة و حاصل جديد و على اثر هذه المقايسه بين حياة الانسان بمراحله الخمس و حياة الزرع بما يطرء عليه من نموّ و تحطّم، يرشدنا جل جلاله الى الحياة الابدية و السرمدية الى مغفرةاللّه و رضوانه، ثمّ ينبه الانسان و يوقظه الى ان لاتغرّه الحياة الدنيا و تحيده من اطار الحقّ الى حظيرة الباطل و الضلال.

و بعد هذا نقول انّ المرحلة التي تخرج الانسان من حياة الطفولة الى حياة التفكر و التدبر و من دور اللعب الى حياة الوقار و الاتزان، هي ما يصطلح عليها بمرحلة البلوغ. فالبلوغ في الواقع يكون حاجزاً بين الآمال و الرغبات و الطموحات الطفولية و بين الحياة الارادية التي يكون فيها الانسان قادراً و مسيطراً على طلبات النفس بفكره و ارادته، و هذه المرحلة التي يصل اليها الانسان هي العنصر الاساسى في حياته.

و لهذا يحصل التغير في صوته حيث يكون ضخيماً بعد ما كان رقيقاً و كذا تغيّر الشعر الناعم الى شعر خشن غليظ و تتكامل اعضائه و يستعد لنسل جديد و حينئذ يكلف الانسان عند بدأ هذه المرحلة بتكاليف تجاه خالقه و معبوده من قبيل الطهارة و الصلاة و الصوم و غيرها مما لم تكن لها بالامس اى اثر في حياته الطفولية.

اذن مسئلة البلوغ مسئلة اساسية في كل التشريعات الّتي تتعلق بالفرد فيجب بحثها و

تحديد صفاتها و مميزاتها، لأنّ اعطاء هذه الأهميّة للمسئلة انّما هي لأجل ارتباط الاصول و الفروع الدينية والأحكام الخمسة بمسئلة البلوغ.

و هذه المسئلة على الرغم من بحثها من قبل علمائنا الماضين، شكرالله سعيهم، لكنها لم تبحث بشكل مفصل و من كلّ الجوانب و الجهات، و لاجل تبدل بعض الموضوعات من جانب و انتشار بعض المقالات الّتي بدل ان تتجه نحو مداليل الادلة توجهت نحو ذكر بعض الارقام و الاقتراحات و الاستحسانات الّتي «لايسمن و لايغنى من جوع» من جانب آخر.

و بذلک اشتغلت اذهان مجتمعنا الاسلامي و حتى بعض المفكرين وانفصلوا عن الطريقة الاصوليه لطرح المباحث الفقهية، و لهذا كان بنائنا بعونالله و توجهات الحجة ابن الحسن المهدي عليه افضل التحيّات و الثناء والسلام والصلوات و عجل الله تعالى فرجه، ان نبحث هذه المسئله بحثا مضاعفا مستعينين بنظريات الفقهاء الماضين و ايضاً بالاستفاده من الآيات و الأخبار والاصول المسلّمة و بعيداً عن الاستحسانات الظنية كما هي طريقة صاحب الجواهر رحمةالله عليه فى كتابه المسمى بـ«الاضواء الفقهية» و فى هذا المجال نطرح تحقيق الآيات القرآنية فحسب بعد البحث عن بعض من اللغات.

التتبع اللغوى

تحقيق العناوين المستعملة في الآيات الشريفة و الروايات من حيث اللغة.

فانّ العناوين المستعملة في الآيات الشريفة و الأخبار والأحاديث عن المعصومين(ع) هي:

بلوغ النكاح، بلوغ الاحتلام و الحلم، البلوغ الاشَدّ، بلوغ السّعى، انقطاع اليتم، الادراک.

و قبل تحقيق الكلام في الآيات يجب ان نحقق المعنى الغوى لهذه العناوين.

البلوغ في اللغة

في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الاصفهانى:

«البلوغ و البلاغ، الانتهاء الى اقصى المقصد و المنتهى مكاناً كان أو زماناً أو امراً من الأمور

المقدرة... نحو «بلغ اَشُدّهُ و بلغ اربعين سنة...»[1] و ربّما يعبّر به عن المشارفة عليه و ان لم ينته اليه، نحو «فاذا بلغن اجلهنّ فامسكوهنّ بمعروف»[2] فانّها اذا انتهت الى اقصى الاجل لا يصح للزوج مراجعتها و امساكها».

و في مجمع البحرين:

«البلوغ الوصول، بلغ الصبى بلوغاً من باب قعد: احتلم و لزمه التكليف».

و في صحاح اللغة:

«بلغت المكان بلوغاً وصلت اليه و كذلك اذا شارفت اليه».

و في المنجد:

«بلغ بلوغاً، الثمر: نضج، والغلام: ادرک، البالغ: المدرک، يقال: غلام بالغ و جارية بالغ و بالغة». البلوغ في اللغة بمعنى الوصول أو على وشک الوصول، فان تعين أحد هذين المعنين انّما يحصل بواسطة القرائن و هنا القرائن تحدد لنا ان المراد بالبلوغ في «بلغ الصّبى» هو بمعنى الوصول الى حدّ البلوغ.

الحُلم في اللغة

في معجم مقائيس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا:

«حلم، اصول ثلاثة، الأوّل ترک العجلة، و الثاني تتقّب الشيء، و الثالث روية الشيء في المنام».

و في مفردات الراغب:

«الحلم ضبط النفس و الطّبع عن هيجان الغضب و جمعه احلام... و ليس الحُلم في الحقيقة هو العقل، لكن فسّروه بذلک لكونه من مسببات العقل... و قوله عزّوجلّ «و اذا بلغ الأطفال منكم الحلم» اى زمان البلوغ و سمى الحلم ليكون صاحبه جديراً بالحلم».

و في مجمع البحرين:

«والحُلم، واحد الاحلام في النّوم، و حَلَم، و احْتَلَم و الاحتلام، روية اللذّة في النوم... و منه احتلمتْ رويتْ اي رأى في النوم انّها تجامع».

و في النهاية لابن الأثير:

«و في كتاب الهروى في حديث معاذ رضي اللّه عنه «امره ان يأخذ من كلّ حالمٍ ديناراً» يعني الجزيه، أراد بالحالم، من بلغ الحلم و جرى عليه حكم الرّجال سواء احتلم أو لم يحتلم و في كتاب أبي‌موسى في حديث «غسل الجمعه واجب على كلّ حالم» و في رواية: «على كل محتلم» أي بالغ مدرک.

و أيضاً في كتاب أبي‌موسى في حديث «الرؤيا من اللّه و الحلم من الشيطان» الرؤيا و الحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الاشياء، لكن غلبت الرؤيا على مايراه من الخير والشيء الحسن، و غلب الحلم على ما يراه من الشرّ و القبيح».[٣]

فالمستفاد من أهل اللغة بالنسبة الى كلمة «الحلم» أنّ لها معانٍ متعددة، منها: الاحتلام في النّوم، الحليم و الصّبور، البلوغ، فساد الحيوانات الصغار و... .

فاستعمال هذه الكلمة في كلّ معنى يجب ان يكون مع القرائن الحالية و المقالية.

فانّ المعاني الثلاثة الأولى قابلة للجمع. و الأخبار الّتي وردت بها هذه الكلمات، تكون قابلة للحمل على المعاني الثلاثة الأول، بانّ الاحتلام في النّوم يكون غالباً مع روية شئ فيها و التّحمل و الصّبر من الآثار البعيده من حياة الطفوله.

الادراک في اللغة

في مجمع البحرين لعالم المحدث الفقيه اللغوي الشيخ الطّريحي:

«الادراک: اللحوق، يقال مشيت حتى ادركته‌ای لحقته».

و في مفردات الراغب:

«ادرک، بلغ اقصى الشئ، و ادرک الصبى بلغ غاية الصّبا و ذلک حين البلوغ».

و في مقائيس اللغة:

«الدال و الراء و الكاف، اصل واحد و هو لحوق الشئ بالشئ و وصوله اليه».

و في المنجد:

«الدرک اقصى قعر الشى، ادرک الشئ بلغ وقته و الثمر نضج و الولد بلغ».

فتبيّن انّ هذه الكلمة ايضاً جائت بمعنى الوصول الى حد البلوغ، فالمدرک هو البالغ بنفسه.

اليتم في اللغة

في النهاية لابن الأثير:

«قد تكرّر في الحديث ذكر «اليُتم واليتيم...» اليُتم في النّاس فقد الصبي اباه قبل البلوغ».

و في المنجد:

«اليتم: الانفراد و اليتيم: المفرد من كل شئ، ...من فقد اباه و لم‌يبلغ مبلغ الرّجال».

اليتم جاء بمعنى الانفراد، و انقطاع اليتم الذى ورد في الأحاديث، هو انتهاء الانفراد، و حالة اليتم تطلق على الذي فقد اباه قبل البلوغ. و بناءً على هذا فانقطاع اليتم مرادف آخر لمعنى كلمة البالغ فيكون الذي بَلَغَ هو الذي ينقطع يتمه.

السعى في اللغة

في مفردات الراغب الاصفهاني:

«السّعى المشى السريع و هو دون العدو... و أكثر ما يستعمل السّعى في الأفعال المحمودة... و قال تبارک و تعالى «فلمّا بلغ معه السّعى» اى ادرک ما سعى في طلبه».

و في مجمع البحرين:

«فلما بلغ معه السّعى، اى الحد الّذي يقدر فيه على السّعى، و كان اذ ذاک ابن ثلاث عشرة سنة».

و في المنجد:

«سَعى سعياً بمعنى عمل أو مشى عدواً».

فالذي يستفاد من أهل اللّغة بالنسبه الى هذه اللفظة «السعى»، هي بمعنى مطلق الفعل و العمل، سواء كان حسناً أو قبيحاً. و عليه فما يقال من أنّ لفظة «السعى» تخص الفعل الحسن ليس بصحيح حيث انّ العرب استعملتها في الأفعال الممدوحة و المذمومة، كما انّ قولهم «ساعت الامه أو ساعاها فلان أو ما ساعى في الجاهلية» كان شايعاً في الذنب و معصية الزّنا القبيحة عندهم.

تحقيق الآيات القرآنية

هنا نحقق الآيات القرآنيه التي جائت فيها لفظة «بلوغ النكاح، بلوغ الرشد، بلوغ الحلم، البلوغ الأشدّ و بلوغ السعى».

١- «**وابْتَلُوا اليَتامى حتّى اِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَاِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُم رُشْداً فَادْفَعُوا اِلَيْهِمْ اَمْوالَهُمْ...**».[٤]

عن امين‌الاسلام الطبرسي رحمةاللّه عليه في تفسير الآية الشريفه:

«...و بلوغ النّكاح هو ان يحتلم لانّه يصلح للنّكاح عنده أو يبلغ خمس عشرة سنة أو ينبت. فان آنستم منهم رشداً أي ابصرتم منهم تهديّاً الى وجوه التّصرف و صلاحاً في الدّين و اصلاحاً للحال».[٥]

و روى المحدث الجليل محمد بن مسعود بن عياش في تفسيره: عن يونس بن يعقوب قال: قلت: لأبي عبداللّه(ع) قول‌اللّه «**فان آنستم منهم رشداً...**» أي شئ الرّشد الّذي يونس منهم؟ قال: حفظ ماله.[٦]

و عن أبي‌جعفر الطوسي رحمةاللّه عليه:

«حتّى اذا بلغوا النّكاح، معناه حتى يبلغوا الحد الّذي يقدرون على مجامعة النّساء و ينزل، و ليس المراد الاحتلام لأنّ في النّاس من لايحتلم أو يتأخر احتلامه و هو قول أكثر المفسرين».[٧]

و في مجمع البيان:

«وابتلوا اليتامى، هذا خطاب لأولياء اليتامى، امرهم‌اللّه ان يختبروا عقول اليتامى في أفهامهم و صلاحهم في اديانهم و اصلاحهم في اموالهم.

حتّى اذا بلغوا النّكاح، معناه حتّى يبلغ الحد الّذي يقدرون معه على المواقعة و ليس المراد بالبلوغ الاحتلام، لأنّ من النّاس مَن لايحتلم أو يتأخر احتلامه و هو قول أكثر المفسرين، فان آنستم منهم رشداً، معناه فان وجدتم منهم رشداً أو عرفتموه».[٨]

و قال الرازى في تفسيره:

«المراد من بلوغ النّكاح، هو الاحتلام المذكور في قوله: «و اذا بلغ الاطفال منكم الحلم» و هو في قول عامة الفقهاء، عبارة عن البلوغ مبلغ الرّجال الّذي عنده يجرى على صاحبه

القلم و يلزمه الحدود و الاحكام و انّما سمى الاحتلام بلوغ النّكاح لأنّه انزال الماء الدافق الّذي يكون فى الجماع.

و امّا ايناس الرشد... و هو ان يعلم انّه مصلح لماله، حتّى لايقع منه اسراف و لايكون بحيث يقدر الغير على خديعته».[9]

و قال الطباطبائي في تفسيره:

«الابتلاء، الامتحان و المراد من بلوغ النكاح، بلوغ أوانه ففيه مجاز عقلى، والايناس المشاهدة و فيه شوب من معنى الالفة فانّ مادته الانس، و الرشد خلاف الغي و هو الاهتداء الى مقاصد الحياة.

...و ذلک (شرطية الرشد) من لطائف سلوكه في مرحلة التشريع فانّ اهمال امر الرشد و الغائه في التصرفات المالية و نحوها مما يختل به نظام الحياة الاجتماعيه في قبيل الايتام و يكون نفوذ تصرفاتهم و اقاريرهم مفضيا الى غرور الافراد الفاسدة اياهم و اخراج جميع وسايل الحياة من ايديهم بادنى وسيلة بالكلمات المزيفة و المواعيد الكاذبة و المعاملات الغررية الى ذلک، فالرشد لامحيص من اشتراطه في هذا النوع من الامور. و امّا امثال العبادات فعدم الحاجة فيها الى الاشتراط ظاهرٌ، و كذا أمثال الحدود و الديات. فانّ ادراک قبح هذه الجنايات و المعاصي و فهم وجوب الكف عنها لايحتاج فيه الى الرشد بل الانسان يقوى على تفهم ذلک قبله و لايختلف حاله في ذلک قبل الرشد و بعده».[10]

فبعد معرفة آراء بعض المفسرين يجب ان ننبه على ان الآية استعملت البلوغ في نوعين و هما «بلوغ النكاح» و «بلوغ الرشد».

ما هو المراد من بلوغ النكاح؟

معنى ذلک ان كلّ انسان سواء كان ذكراً أو انثى يكون قادراً على المضاجعة و التمكن من الوطى أو تمكين البضع، و هذا المعنى يكون مرادفاً لمعنى الاحتلام، لأنّ الاحتلام لايتحقق الّا مع القدرة على ذلک و قبل الاحتلام لاتوجد قدرة على ذلک.

ثمّ ان الشيخ الطوسى و تبعه الطبرسي رحمةاللّه عليهما، وقعا فى اشكال لتفسيرهما

الاحتلام بالاحتلام الفعلي، و قالا: ان المراد من بلوغ النكاح ليس هو الاحتلام، لأنّ بعض النّاس قد لايحتلم أو يتأخر احتلامه.

و الصحيح ان المراد من الاحتلام هو القابلية و الاستعداد لذلک. والذى لم‌يحتلم مطلقاً أو تأخر احتلامه لفترة فالقدرة و الاستعداد موجودة قبل ذلک و متى ما حصل هذا الاستعداد، حصل البلوغ حتّى لو لم‌يحتلم. و يؤيد ذلک العطف التفسيرى في بعض الأحاديث بين «بلوغ النكاح» و «الاحتلام»، حيث يظهر منه انّهما يحصلان معاً.

فقد روى في تفسير القمي عن الامام(ع) في بيان قوله تعالى: «**و لاتؤتوا السفهاء اموالكم**» قال: من كان في يده مال بعض اليتامى فلايجوز ان يعطيه حتّى يبلغ النكاح و يحتلم.[11]

ما هو المراد من بلوغ الرشد؟

المستفاد من تفسير الآية الشريفه، هو انّ الرشد يحصل بعد بلوغ النكاح أو على الاقل تفارنهما معاً، و لذا ان الرشد لايحصل قبل بلوغ النكاح.

و على كلّ حال ان تصرفات الايتام في المسائل المالية انّما يكون ماضيا و نافذاً لوتحقق كلا الشرطين و هذا امر مسلم به.

و المراد من الرشد هو ان الصّبى يدرک ان للمال اهمية و يعرف طرق حصوله و حفظه من موجبات التلف و قدرته على الدخول في المعاملات.

فعلى هذه الآية ان اعطاء الاموال متوقف على رشد اليتيم و بما ان الرشد يتحقق تدريجياً، فيمكن اعطاء بعض امواله بقدر رشده، ثمّ اعطاء كل امواله بعد كمال رشده.

٢- «**و لاتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتيمِ الّا بِالّتى هِىَ اَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ اَشُدّهُ**».[12]

ذكر ثماني مرّات كلمة «البلوغ الأشدّ» في مناسبات مختلفة في القرآن الكريم و الآن نتبيّن تفسير هذه اللفظة في التفاسير:

عن شيخ الطائفة ابي‌جعفر الطوسي في التبيان:

«و قوله (حتّى يبلغ اشده) اختلفوا في حد الاشد، فقال ربيعة و زيد بن اسلم و مالک و عامر الشعبى: هو الحلم. و قال السدى ثلثون سنه، و قال قوم ثماني عشرة سنة، لأنّه أكثر ما

يقع عندهم البلوغ و استكمال العقل. و قال قوم انّه لاحد له و انّما المراد به حتّى يكمل عقله و لايكون سفيهاً يحجر عليه».[۱۳]

و عن الطبرسي في المجمع البيان:

«الاشدّ» و احدها «شد» مثل «الاشر» في جمع «شر»... و «الشدّ» القوة و هو الاستحكام قوة الشّباب و السّن كما ان شدّ النهار هو ارتفاعه و قيل هو جمع شدّة مثل نعمة و انعم.

حتّى يبلغ اشدّه، اختلف في معناه فقيل انّه هو بلوغ الحلم. و قيل هو ان يبلغ ثماني عشرة سنة... و قيل انّه لاحدّ له بل هو ان يبلغ و يكمل عقله و يونس منه الرّشد فليسلم اليه ماله و هذا أقوى الوجوه».[۱۴]

و في تفسير الميزان العلامة الطباطبائي رضوان‌اللّه عليه:

«النهي عن القرب للدلالة على التعميم فلايحلّ أكل ماله و لااستعماله و لا أيّ تصرف فيه الّا بالطريقة الّتي هي أحسن الطرق المتصورة لحفظه. و يمتدّ هذا النهي و تدوم الحرمة الى ان يبلغ اشدّه، فاذا بلغ اشدّه لم يكن يتيماً قاصراً عن ادارة ماله و كان هو المتصرف في مخال نفسه من غير حاجة بالطبع الى تدبير الولى لماله.

و من هنا يظهر ان المراد ببلوغه اشده هو البلوغ و الرشد كما يدل عليه قوله: «وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً...».[۱۵]

المتراءى من عبارات المفسرين و ما يستفاد من أهل اللغة، هو ان «بلوغ الرشد» و «بلوغ الاشد» ليس بينهما اختلاف في المعنى فكلّما وصل اليتيم الى مرحلة الرشد و بلغ اشدّه يجب على الولى دفع امواله اليه و لايجوز له التصرّف فيها.

فان قلت: في الآية الشريفه:

«وَ وَصَّيْنَا الْاِنْسَانَ بِوالِدَيه اِحْسَاناً... حَتّى اِذا بلغ اشده و بَلَغَ اَربعينَ سَنَةَ قالَ رَبِّ اَوْزِعنى اَنْ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...».[۱۶]

لفظ «بلغ اشدّه» ذكر متقارن مع «اربعين سنة».

قلت: ان ذكرهما معاً لايدل على ترادفهما خصوصاً انّ لفظ «اربعين سنة» ورد بعد «بلغ

اشدّه» و على هذا الاساس بناءً على رأى بعض المفسرين أنّ بلوغ الأشدّ في الآية هو نفس البلوغ الجسمى و هذا ما اردناه بحثه و انّ المراد بالاربعين سنة هو النضوج العقلى و الفكري.

فانّ في هذا السن يكمل عقل الانسان و لذا انّ كثيراً من الأنبياء بعثوا بعد سن الاربعين و كل من يصل الى هذا الحد يجب دائماً ان يأخذ سبيل الاحتياط في كلّ امر و ينظر الى فوائده الدنيوية و الاخروية.

و انّ من يصل الى هذا السّن و لايكف عن المعاصي فانّه من أهل النّار كما جاء في الاخبار و الاحاديث:

«**انّ الشيطان يجرّ يده على وجه من زاد على الاربعين و لم‌يتب و يقول بابى وجه لايفلح**».[17]

مع انّه يمكن ان يقال ان للبلوغ الاشد مراتب مختلفه و هي تختلف بحسب كلّ شئ.

٣- «**يَا اَيّهَا الّذينَ آمَنُوا لِيَسْتَئْذِنْكُمُ الّذينَ مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ وَالّذينَ لَمْ‌يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّات...**».[18]

٤- «**وَ اِذا بَلَغَ الْاَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَئْذِنُوا كَما اسْتَئْذَنَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...**».[19]

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان:

«بيان ان حكم الاستيذان ثلاث مرات في الاطفال مغيّى بالبلوغ فاذا بلغ الاطفال منكم الحلم بان بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم و هم البالغون من الرجال و النّساء الاحرار».[20]

و في تفسير الفخر الرازي:

«اما قوله تعالى «**والذين لم‌يبلغوا الحلم منكم**» ففيه مسائل... المسئلة الثانية، اتفقّ الفقهاء، على انّ الاحتلام بلوغ واختلفوا اذا بلغ خمس عشرة سنة و لم‌يحتلم...».[21]

فبناءً على ما عرفنا من لفظة «الحلم» لغة، فانّها بمعنى ضبط النفس عن هيجان الغضب و بما انّ ضبط النفس و كظم الغيظ و الصبر، من آثار الكمال العقلى، اطلق عليه العقل تسامحاً. نعم انّ بعضهم فسّر الحلم بالاحتلام في النوم و عليه يكون بلوغ الحلم بمعنى زمان الاحتلام و على كلا المعنين، تكون لفظة «الحلم» كنايةً عن زمان البلوغ.

٥ـ «فَبَشّرنَاهُ بِغُلامٍ حَليمٍ فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السّعْيَ قالَ يا بُنَيّ اِنّي اَرى في المَنامِ اَنّي اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذا تَرى قالَ يَا اَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُني اِنْشَاءاللّهُ مِنَ الصّابِرين».[٢٢]

في هذه الآية الّتي هي مقطع من قصة ذبح اسمعيل على نبيّنا و آله و عليه‌السلام، استعملت لفظة «بلوغ السعى» اي «**بلغ معه السعي**» و ان محادثة خليل‌اللّه مع ابنه اسمعيل حدثت بعد زمن بلوغ السعى.

فهنا لابد ان نرى ان هذه اللفظه في عبارات المفسرين باى معنى جائت؟

في تفسير التبيان لشيخ الطائفة ابى‌جعفر الطوسى رحمةاللّه عليه:

«فلما بلغ مع ابيه السّعى يعني في طاعةاللّه، قال الحسن: سعى للعمل الّذي تقوم به الحجة، و قال مجاهد: بلغ معه السعى، معناه اطاق ان يسعى معه و يعينه على اموره و هو قول الفراء، قال: و كان له ثلاث عشرة سنة».[٢٣]

و قال الرازى في تفسيره:

«فلما بلغ معه السعى، معناه فلمّا ادرک و بلغ الحد الذي يقدر فيه على السعى و قوله (معه) في موضع الحال و التقدير كائناً معه و الفائدة في اعتبار هذا المعنى انّ الاب ارفق النّاس بالولد، و غيره ربّما عنف به في استسعاء فلايحتمله لأنّه لم تستحكم قوته، قال بعضهم كان في ذلک الوقت ابن ثلاث عشرة سنة، و المقصود من هذا الكلام انّ اللّه تعالى لما وعده في الآية الاولى بكون ذلک الغلام حليماً، بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه، و ذلک لأنّه كان به من كمال الحلم و فسحه الصدر ما قواه على احتمال تلک البليّة العظيمه و الاتيان بذلک الجواب الحسن».[٢٤]

و قال امين‌الاسلام الطبرسى رحمةاللّه عليه:

«فلما بلغ معه السعى، اى شبّ حتى بلغ سعيه... و قيل يعنى بالسعى، العمل للّه و العبادة».[٢٥]

و قال الطباطبائي رحمةاللّه عليه:

«و المراد ببلوغ السعى بلوغه من العمر مبلغاً يسعى فيه لحوائج الحيوة عادة و هو سنّ

الرّهاق».[٢٦]

و قال جارالله الزمخشري في تفسير الكشاف:

«فلمّا بلغ ان يسعى مع ابيه في اشغاله و حوائجه».[٢٧]

فبالنظر الى المعنى اللغوى للفظة «السعى» و التدقيق في عبارات المفسرين نحصل على انّ بلوغ السّعى يراد به الوقت الذي تحصل به القدرة على ادارة شؤنه الخاصة و الحياة مع الرّجال، لأنّ الطفل اذا تمكن من القيام باموره و حوائجه بنفسه، و يخالط المجتمع الاسلامى لايحتاج الى الغير قطعاً و هذا الوقت هو وقت بلوغ السعى.

هذه المرحلة هي مرحلة المراهقة و القرب من زمن البلوغ و الاحتلام، كما جاء في عبارة الميزان، نعم نُقِلَ في تفسير التبيان عن الفراء، ان بلوغ السعى يحصل في ثلاث عشرة سنة.

نتيجة تحقيق الآيات

بعد بيان الآيات الّتي ذكرت فيها هذه الألفاظ و هي بلوغ النكاح و بلوغ الرّشد و بلوغ الحلم و بلوغ الأشدّ و بلوغ السعى، نحصل على هذه النتيجه و هي:

اولاً: انّ هذه الكلمات تستعمل في معنى واحد تقريباً و لفظ بلوغ الرشد و بلوغ الأشدّ، بما انهما استعملا في التّصرفات الماليه يظهر انّ لهما معنى أوسع و اكبر من المعنى الأوّل.

ثانياً: لَمْ يُؤخذ في الآيات مبدأ معينٌ لمرحلة البلوغ، مع أنّ اثبات قلم التّكليف متوقف على البلوغ و كلّ التكاليف الالهية تدور حول عنوان البلوغ. فلو كان هناك حداً معيناً للبلوغ، لذكره القرآن الكريم.

و هل يمكن ان يقال ان كلّ التكاليف من الحلال و الحرام ذكرت في القرآن الكريم و لكن لم يؤخذ سنٌ خاص للعمل بها؟ اذن نستنتج من ذلک ان عدم ذكر سن معين في القرآن الكريم مع اهميته يدل على ان الله تعالى اعتبر في اثبات قلم التكليف الوصول الى حد البلوغ، هذا ما يستفاد من نتيجة تحقيق الآيات، اما الآن يا ترى هل نستفيد هذا المعنى من الروايات أيضاً حتّى يمكن اعطاء حكم قطعى بذلک أو ان نأخذ حداً معيناً فتكون الروايات مخصصة للآيات.

تلويحات

۱ـ الاحقاف/۱۵.

۲ـ الطلاق/۲.

۳ـ و كذا في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكرى، الصفحة۱۹۸.

۴ـ النساء/۶.

۵ـ تفسير جوامع الجامع، المجلد الاول، الصفحة ۲۳۷.

۶ـ تفسير العياشي، المجلد الأول، الصفحة ۲۲۱.

۷ـ التبيان في تفسير القرآن، المجلد الثالث، الصفحة ۱۱۶.

۸ـ مجمع البيان، المجلد الثاني، الصفحة ۸.

۹ـ التفسير الكبير، الجزء التاسع، الصفحة ۱۸۹.

۱۰ـ تفسير الميزان، المجلد الرابع، الصفحة ۱۷۲.

۱۱ـ تفسير علي بن ابراهيم، ذيل الآية.

۱۲ـ الانعام/۱۵۲؛ الاسراء/۳۴.

۱۳ـ التفسير التبيان، المجلد الرابع، الصفحة ۳۱۸.

۱۴ـ تفسير مجمع البيان، المجلد الثاني، الصفحة ۳۸۳.

۱۵ـ تفسير الميزان، المجلد السابع، الصفحة ۳۷۶.

۱۶ـ الاحقاف/۱۵.

۱۷ـ تفسير روح المعاني، المجلد السادس و العشرون، الصفحة ۱۷.

۱۸ـ النور/۵۸.

۱۹ـ النور/ ۵۹.

۲۰ـ تفسير الميزان، المجلد الخامس عشر، الصفحة ۱۶۴.

۲۱ـ تفسير الكبير، الجزء الرابع و العشرون، الصفحة ۲۹.

۲۲ـ الصافات/ آيتى ۱۰۱و۱۰۲.

۲۳ـ التفسير التبيان، المجلد الثامن، الصفحة ۵۱۶.

۲۴ـ تفسير الكبير، الجزء السادس و العشرون، الصفحة ۱۵۲.

۲۵ـ تفسير مجمع البيان، المجلد الرابع، الصفحة ۴۵۲.

۲۶ـ تفسير الميزان، المجلد السابع عشر، الصفحة ۱۵۲.

۲۷ـ تفسير الكشاف، المجلد الرابع، الصفحة ۵۳.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی